
سبتیموس سیاویروس

سلسلة بلابل الربيع

منشورات مكتبة سمير
بيروت - شارع غورو - هاتف : ٢٢٦٠٨٥

سلسلة
بلابل الربيع

سبتيموس ساويروس

تأليف
ميخائيل صوايا

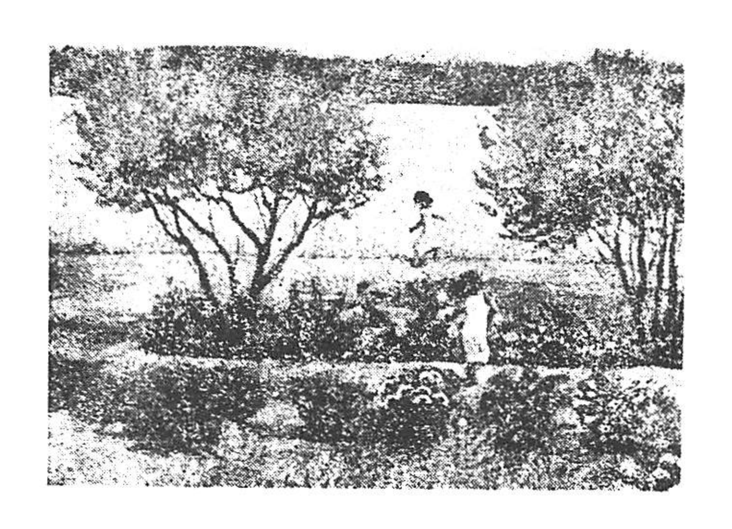
منشورات مكتبة سمير
بيروت ـ شارع غورو ـ هاتف : ٢٢٦٠٨٥

طبعة جديدة ١٩٨١

كان السيّد ساويروس من اغنياء مدينةِ « لاتيسَ ماجنَه » الافريقيةِ التَابعَةِ لقرطاجة : الدَّولةِ ٱلعَظِيمَةِ التي بَناهَا أبناءُ مدينةِ صورَ اللبنانيْــةِ على الشّاطِىء الافريقي . وهي اليومَ من ممتلكاتِ جمهورِيّةِ تونسَ العربية . ولاتيس ماجنه ترجمتها حمص : وكانت حمصُ في القديم فينيقيَّةً فسُمّيت هذه المدينةُ باسمها .

كان للسيد ساويروس في جوارِ حمص الافريقية هذه ، بساتينُ وكروم من زيتونٍ دائمِ الاخضرار

وكان قد خَرَجَ مع زوجتـــهِ في ذلك الأصيلِ من تشرين الأول سنة ١٦٨ للميلاد يتنزهانِ و ينظرانِ إلى



النّاسِ يعملون في قطافِ الزيتونِ وجَمْعِهِ في أَكْياسِ لِيُحْمَلَ إلى المعاصرِ في ضواحي المدينة .

وكانَ ذَاكَ الاصيلُ [1] صافياً ، نقيَّ الهواء . فارتاحت المرأَة الجميلةُ لمنظرِ الخير المتَدَفِّقِ ونشاطِ الأُجَراءِ [2] في العَمَل . فاطالتِ النظرَ اليهم .

وكانت أَسْرابٌ [3] من البلابلِ تُوَدِّعُ النهـارَ بالتَّغريدِ تتجاوبُ على أَغْصان النخيل المُجاوِرِ لبساتينِ الزيتون .

فَطَرِبَتْ لصُداح البَلابل ، وطالَ إِصْغَاؤُها وقد نسيت أَنَّها حامِلٌ ، وساعاتُ الوِلادةِ على الأَبْواب .

وكان السّيدُ ساويروس مُرْتاحاً لارتياحهـا ،

يتحدّثُ الى وكيلِ أملاكهِ ، ويُعبِّرُ له عن سرورهِ بنشاطِ الأُجراء العاملينَ في القِطافِ مِن رِجالٍ ونساء . ويَعِدُ بالمكافأة .

وذابَتْ أشعّةُ الشّمس وودعت البساتين وتجمّعَ العُمّال على ما قطفوا فحملوه الى المَعاصِر . وتفرّق الباقونَ إلى منازلهم يَنشُدون[٤] الرّاحة .

وكانَ آخرُ شعاع من الشّمس يودّع النّخيلَ الحافِلَ بصُداح البلابل ، لمّا نَظرَتْ المرأةُ الحسناءُ إلى الأُفقِ ، فرأت الزُّهرة[٥] قد طلَعت بأبّهةٍ وجلال . كأنّها تقول للشمس ، جاء موعدُ تألُّقي[٦] فدعيني أتمجّد .

وكانت المرأةُ تتعبَّـدُ للزُّهرةِ إلاهـةِ الحُبِّ والجمال . فراحت تتأمَّلُها خاشِعة . وحاولت أن تتلوَ صلاةً قصيرةً لمَّا مرَّت بها امرأة أجيرة في سنِّ الكُهولةِ . فرمقتها باسمـة . ثُم اشارت إلى الزهرة تتألق بنورها البهيِّ وقالت :

« سيكون ولدُكِ سعيداً يا سيدتي ، لأنَّ الزُّهرة تُشرِقُ عليكِ بأَبهى أنوارِها . فإنْ وُلِدَ في هذه الليلةِ ، فَسيكونُ مِنَ الملوكِ العِظـام يتألَّقُ التّاجُ على جَبينِه » .

ورنَّ هذا الكَلامُ في مَسْمع السيد ساويروس فتضاحكَ قائِلاً :

مَن علمكِ على التَّنبُّوء يا هذه ؟

- روحي يا سيدي تقولُ لي . ولا أَرْجُو مُكافَأَةً على هذه البُشْرى .

فقال ساويروس .

بل ستكونُ لك مكافأتُكِ إن أَطَلَّ مولُودُنا في هذه الليلة على الوُجود .

وقالت المرأة الحسناء على الفور :

- بَشَّرتِ خيراً ، فَدُونكِ هَدِيّةً مِنِّي .

وقَدَّمت للمرأةِ الفَلَّاحةِ إسواراً ذَهبيًّا .

ـ مُجِّدتِ الآلهةُ وليدَكِ يا زوجةَ ساويروس فهو طَليعةُ خيرٍ على الإنسانيَّة .

ومضت الفَلاَّحةُ في طريقها نحو المدينةِ وكأنَّها طيفٌ[٧] من طيوفِ الغَيْب .

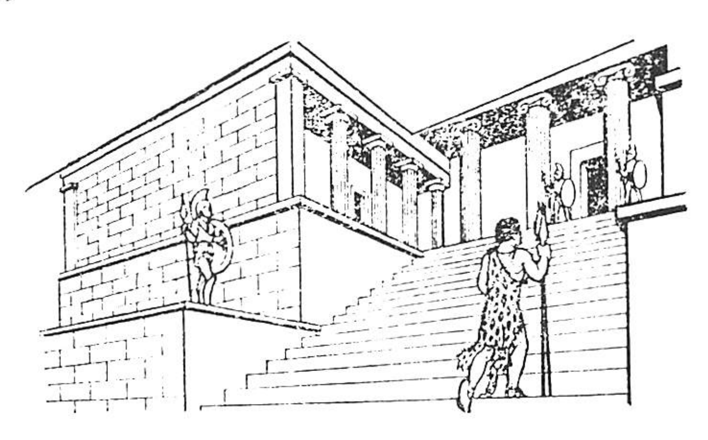
وما كادت تَبتعدُ خِلالَ كُرُومِ الزَّيْتونِ حَتَّى عادَ سَاويروس ينظرُ إلى زوجتِهِ فرَأَى وجهها يَتَوَرَّدُ بحُمْرةٍ شَدِيدة . فابتسم لها مُلاطفاً وقال : « ماذا يا أَغناس هل يَطُلُّ وليدُنا في هذه الليلةِ على الوجود ، وتصدُقُ نبوءَةُ الفَلاَّحة ؟ »

فحاولت أَغناسُ أن تَبتسم ، ولكِنَّ الأَلَمَ كان

يبدو في ملامحها الجميلة . فقالت : أَحسن لنا ، لو عُـــدنا إلى دارنا . وما أَراني قادرة على السير »
فارتبك ساويروس وقال :

« إذن أَفرش لكِ ردائي تَحْتَ هذه النَّخلةِ ريثما أُرْسلُ واحداً من هؤلاءِ يأْتيني بِجَواد » .

وخلع سَاويروس رِداءَه ، وفرَشَهُ على أرضٍ



مُمَّهدَة وساعَد زوجَته فَجلست عليه . ثُمَّ نادى أحد الأُجَراء الشبابِ وقال له :

سر إلى داري ، وكَأَنَّكَ نَسْرٌ من النسور ، وعُدْ إليَّ بِجَواد عليه سرج ناعم جديد .

فَأَخَذَ الشّابُ يعْـدو راكِضاً نحو المدينة ، وساويروس يُحَدِّقُ إلى زوجتهِ ويقرأُ ما يَرْتَسِمُ على ملامحها من الأَلم والانفعالات المختلفة . وقـد علَّقَتْ بصرَها بِإلاهةِ الْحُبّ والجمال تستمِدُ منها المَعونَةَ على الأَلم .

ثُمَّ أَقبَلَ الشَّابُ مُسْرِعاً ، يقودُ جواداً أَبيض علَيْهِ سرجٌ جديد من أرْجوان . فصاح به ساوِيروس ،

« عُوفيتَ يا أَخا النجدة[٩] ! » وَأَلْقَى في يَدِهِ قِطعةً فضيَّة . ثُمَّ رفع زوجته على الْجَواد ، وسارَ إِلَى جانبها نحو المدينة ويَدُهُ تضْبُطُ اللِّجام .

وقبلَ أَن يَدْخُلَ بزوجتِهِ إِلى الدَّارِ أَرْسَلَ من يدعو القابِلة[١٠] .

وَأُدخلَتْ أَغناسُ إِلى حُجرتها ، واهتمَّ الخدَمُ بتلبيةِ كُلِّ أمر .

ولمّا أَصْبَحَتِ الزُّهرةُ في قُبَّـةِ الفَلك . كان صوتٌ جديدٌ لطِيفٌ ينبعث في الدَّارِ من حُجرة أَغناس .

فقالت القَابلة ، وهي تَحْمِلُ الطِّفْلَ مُبَشِّرَةً :

« تَهَلَّلْ يَا ساويروس ! إنَّ وَلدَكَ البِكرَ من السُعداء ، لأنَّهُ وُلِدَ في برنسٍ شَفَّاف . وكَأَنَّهُ قِطعَة من النُّور في هذه الليلة المباركة »

فدمعت عينـــا ساويروس من الفرح ؛ ودفَعَ للقابلة كيساً من النقودِ الفضيةِ مُكافأةً لبُشْرَاهَـــا . ومالَ على عبيدهِ وخدَمه وراح يوَزِّعُ عليهم النقودَ والهدايا مُستَبشراً سعيداً ؛ ثُمَّ دَخَـــلَ الى حجرة زوجتِه فقبَّلها مُهَنِّئاً ، ورَمَق الطفلَ بعينِ المَحبـــةِ والإعجاب ؛ ودَعاه سبتيموس .

كان سبتيموس في طفولتِهِ جميلاً باسماً . يميل إلى الرياضةِ . ولمَّا صار حَدَثاً راحَ يُنظِّمُ أَتْرابَهُ (١)

ومَن هم أَصْغَرُ منه سِنا في فِرَقٍ رِيَاضيَّةٍ أحيانًا ، وشبهِ جُنْدِيّةٍ أحيانًا أخرى .

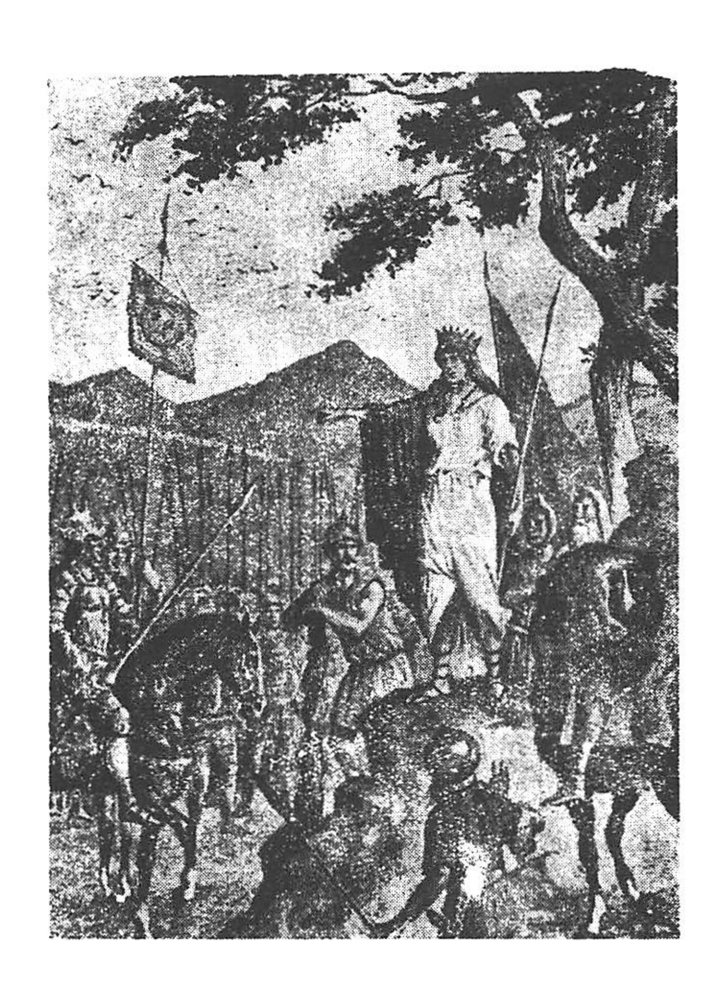
وكان يَطْلُبُ من معلّمه أن يحكي له حكاياتِ الأبطالِ ومشاهِيرِ القادة . وَأَظْهَرَ إعجابًا خاصًّا بالاسكندر وهنيبعل . ولمَّا بَلَغَ الثَّامنَةَ عشرةَ من العمر أَعْلَنَ لِوَالديهِ رَغبته بأَنْ يَلْتَحِق بإحدى وَحَداتِ الجَيش الروماني .

وكان الرومانُ بعدَ سيطرتهم الواسِعةِ على العالَمِ المعروفِ في زمانهم ، قد فَتحوا أبواب جُنديَّتهم لرعاياهم في كُلِّ قُطْرٍ من أقطارهم . فوافق والدا سبتيموسَ بعد ترددٍ على رَغبتهِ ، وسألَتْ أُمُّهُ

أَغْناسُ إلاهةَ الْحُبِّ والجمال أَن ترافقَه برعايتِها وتكونَ عيناً في حِلِّه وتَرحاله (١٢) .

وَأُمرتِ الوحدةُ التي كان سبتيموس من جُنودِها أَن تُخْضِعَ بعضَ المتمرِّدين على السُلْطَةِ في القَيروانِ - وكانَت ولايةً في ليبيا على حُدود مصر - فاظهر شجاعَةً وحِكْمَةً لفتت اليه الأَنظارَ . فرُقِّيَ إلى رُتبةِ ضَابطٍ صغير .

وبعدَ سنتين ، كانت أَغناس تنتظر زوجها تحت شجرات النخل الباسقات (٣) والشمسُ عندَ الغروب . وكان ساويروس مشغولاً مع أُجرائِه كَعادتهِ في كُلِّ مَوسِمٍ من مَواسمِ قِطاف الزيتون . فتأَلَّقَتِ الزُّهرةُ على عرشِها النورَاني، وعَلِقَت بها نظراتُ أَغناس،



مُتذكِّرةً ليلةَ البُشرى بمولودها البكر سبتيموس .
فهاجَ في قلبها الشَّوقُ إلى طَلعته البهيّة ، وقد فارقَها في بَزَّتهِ العسكرِيّة، على أملِ عودةٍ لن يكون بينها وبين الفراقِ مدى طويل .

وبغتةً ظهرت فِرقةٌ من خَيَّالةِ الْجَيْشِ الرُّوماني في مُقدَّمتِها ضابطٌ جميلُ الطَّلْعَة في طريقها إلى المدينة.
فما كادت عينا أغناس تلحظُ الضَّابطَ الفَتَى ، حتى راحَ قلبُها يخفُقُ في سرعةٍ ، فأخذها العجب .
ولكنَّها رَأتهُ يُحدِّقُ النَّظرَ إليها ويَبْتَسِم ، فخالجَتْها ظنونٌ مختلِفَة . ولم تُقدِّر أن يكُونَ ولَدُها قد صارَ قائدَ فرقةٍ من فرق الخيالةِ ، ولَمَّا يَمضِ على دخوله الْجَيشَ أَكْثَرُ من سنتين .

ثُمَّ سَمِعَت صوتَه يأمرُ جُنْده بالوُقوف . فقالت في نفسها :

« كَأَنَّه صوتُ سبتيموس ولدي » فدنا بجوادِهِ منها ، ثُمَّ تَرَجَّل ومشى نحوها خَاشعاً يقول : قبليني يا أُمّاه ! » .

فَضَمَّته أغناسُ إلى صدرها ، والجنودُ ينظرون متأثِّرين .

ثُمَّ نادى أباه ، وَعَرَّفه بِقْدَمِه ، فرمَقَه والدُهُ في إعجابٍ ومحَبَّة . ثُمَّ عانَقه وهو يقول :

باركتْك الآلهةُ يا سبتيموس وَجَعَلَتْ منكَ فخرَنا وعزَّنا ، ومجداً للأُمَّة الَّتي انجبتك (١٤)

واستأذَنَ سبتيموسُ القائدَ الكبير ، فمَنَحَهُ إجازةَ اسبوعٍ يقضيهِ عند أهله .

فكانت أَغناسُ تُصغي إلى أَخبارِه ، وتتذكَّر الزُّهرة في ليلةِ مولده ، وأَقوالَ الفَلَّاحة عن مولودها الذي سيكونُ من عظماءِ الرجال .

وأَحاطَ سبتيموس اخوته برعاية ومحبة ، وتنازَل لهم عن نصيبهِ من عطاءِ البساتين والكروم . وطلبَ من والده أَن يهتمَّ بتعليمهم .

وكانوا في كُلِّ مساء يتحلَّقُون [١٥] حولَه ، فيقُصُّ عليهم أَخبارَ التَّاريخ ، والأَسْفار في البر والبحر ، وعن أليسارَ الْأَميرةِ الصُّورية التي نزلت

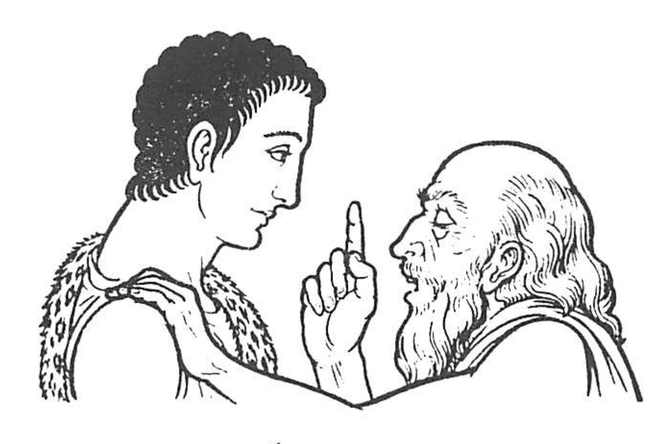
عَلى هذا الشَّاطىءِ مع جماعة من قومهـا ، وَأَنشَأَتْ بِحَزْمِها[١٦] وَحِكْمَتِها قَرطَاجَةَ العَظِيمة ؛ ويتوسَّعُ في ذِكرِ نشأةِ هَنيبعل العبقري [١٧] ، ويَتَأَسَّفُ على نهاية قَرطاجَةَ التي حضَّرت البلاد ، ونوَّرَتْ عقولَ العِباد .

وكان ساويروس واغناس على كَثَبٍ [١٨] يُصْغِيانِ في رغبةٍ ولذَّة . فهمست أغناس لِزَوجها قائلة :

ما تُراهُ يصنَعُ لو صار امبراطوراً على رومة ؟ أَجابها ساويروس بصوت مسموع قائلاً :

والآلهةِ ! لَيَزرَعَنَّ تَماثيلَ هنيبعلَ في كُلِّ مكان ، ولو في قلب رومةَ نفسِها .

فردَّ عليه سبتيموس هاتفاً :



ـ حققتِ الآلهة دُعاءَك يا أَبي !

وانتهت إجازةُ سبتيموس فعاد إلى وَحْدته ، فإذا على مكتبه رسالةٌ من القيادةِ العُلْيا ، فَلَمَّا أزال خَتْمَها الشمعيَّ وقرأَ ما فيها . قال في نفسه : إنَّ رِضاءَ الوالدَين ، ودعاءَهما سعادةُ الدنيا . هذه دعوةٌ جديدةٌ إلى رتبةٍ أَعلَى . إنَّ رومة تنتظرني لأقومَ على تدريبِ قادتها الجُدد ، وقد أَكونُ أَصْغرَهم سِنًّا ،

فَلَا بُدَّ أن يَنظوروا إليَّ أنا الافريقيَّ من أصْلٍ شرقي ، نظـــرَةَ الحَسَد . لا . لن أترك الحَسدَ يَرعى في قلوبهم . كما غَزَوْتُ قَلْبَ القائدِ الروماني في أفريقيا فرفعني من ضابط صغير إلَى قائد فرقةِ الخيالة ، سَأَغزو باللُّطفِ ، وَالإِحسانِ قلوبَ الجُندِ وَالضُّباطِ وَالقادةِ في رومة .

وَعادَ على الأَثَرِ ، فَوَدَّعَ أَباه وَأُمَّه وَاخـــوتَه وَسافَرَ إلَى رومة .

وَأَقَامَ يَدرِّبُ القــادة ، ويَقفُ على تَدريبِ الضُّباطِ أَيضاً ، مُتَسامحــاً مجاملاً ، لا يُشعِرُ الذينَ يُدَرِّبُهُم على القِيادَةِ الصَّحيحَةِ بِأَنَّهُ أَعْلى منهم رُتبةً . فامتلأت نفوسُهُمْ من الإِعْجَابِ بِأَخلاقِهِ ، كما وَثِقُوا

بِمقدرِتِهِ كُلَّ الثِّقـــة . فتَسَابقوا على مَوَدَّته ، والاخلاصِ له .

وَطَــارَ صِيتُهُ إِلَى مَجلِسِ الشُّيوخِ الرُّومانيِّ فَأَمَرَ بِمكافَأَتِهِ وَترقيته .

فَما زادَه ذلكَ إلَّا تواضعاً ، وَنَشاطاً في إِخْرَاجِ قَادةٍ عَلى نَحوٍ جَديدٍ من المَقدرةِ وَحسنِ الانضباط ، وَسهولةِ الْأَخلاق . فَلم يَبقَ القائِدُ الذي تَخَرَّج على طَرِيقَتِهِ جَبَّاراً مُخِيفاً ، وَأَن يَكن قادراً عــلى ضَبطِ الأُمورِ ، وَتَوطِيدِ الْأَمْنِ وَالنِّظامِ حيث تُعَيِّنُـــهُ السلطةُ العُليا .

وكان قَدْ بَلَغَ حُكَّامَ رومة أَنَّ بعضَ بِـــلادِ

الشرقِ تُحَاوِلُ أن تُحدِثَ أحداثاً لا تَلِيقُ بِهَيبَـــةِ الإمبراطورية ، بَلْ تُصَدِّعُهَا ، وَتُؤدِّي إِلَى إِضْعَافِهَا.

وَلَمَّا تَدَارَسَتِ الأسباب ، رَأَت أَن تُغَيِّرَ وَتُبَدِّلَ فِي الرجالِ القَائِمِين على السلطةِ في الشرق .

فَأَسندت قيادةَ الجيوشِ في الشرق إلَى سبتيموس ساويروس ثقةً بِحَزمِهِ ، وَاقتدارِه على مُعالجةِ المَصاعب .

فراحَ يَتَنَقَّلُ في أَرجائِها ، فَيُصلِحُ الأُمورَ وَيَرفَعُ المَظَالِمَ ، وَيعَاقِبُ مَن لا يُريـــدُ أن يَتعَرَّفَ إِلَى العَدالة ، وَيعرِّفُ القادَةَ المحليين وَأَصحَابَ الوظَائِفِ أَهمِيَّةَ القِيَامِ بِواجبَاتِهِم بِأمانةٍ وَتَأدُّبٍ ، وَطَرِيقَ الوصولِ إِلَى ثِقَةِ الشُّعوبِ ، لأنَّ الأمْنَ الذي يَستَقِرُّ

بعضَ الوقتِ عن طرِيقِ الظلم وَالقسوةِ لا بُدَّ أن يضطربَ وَيَنفجرَ وَيزول .

وَهكذَا ، عَادَ الشَّرقُ يَتعَرَّفُ إلى مؤسسٍ جديدٍ للامبراطوريةِ الرُّومانِيَّة عن طرِيقِ إجراء العَدالةِ وَالإصلاح .



في هذا الوقت ، تعرّف سبتيموس قائدُ الشرق إلى باسيانوس ، رئيسِ كهنةِ حمص . وكانت حمصُ وجوارُها عهدَ ذاك منطقةً فينيقيّة. فلمّا وقعَ نظرُهُ على « جوليا دمنة » ابنةِ الكاهن ، أُعجِبَ بجمالها . وزادَ إعجاباً بها لمّا تحدّثَ اليها ، وانكشفَ لهُ ذكاؤُها ، وعذوبةُ كلامِهَا ، ومَا تنطوي عليه نفسُهَا من جوهرٍ معنويٍّ رفيع . فخطبهَا إلى والدِها . فقالَ لهُ الكاهنُ الشيخ : « لهذهِ الفتاةِ ما ليسَ لغيرِها منَ الحقوق . فهي قادرةٌ أن تختارَ الرّجلَ الي يُعجبهَا . وقدْ بلغتِ العشرين ، ولم تتزوّج بعدُ ، لأنّي لما أعهدُ فيها من حرّيةِ الرّأي والذكاءِ تركتُ هذا الأمرَ لاختيارِها . فإن وافقتْ على الزّواجِ منكَ ،

فَإِنِّي أَكُونُ سعيداً . لأنَّ ابنتي تكونُ قد اختارتِ الرَّجــلَ الثِّقَةَ الذي يَستَحِقُّ الإعْجَابَ وَالمَحَبَّةَ وَالتَّقْدير . »

أَجاب سبتيموس : « هــذَا ما أُحِبُّ أن يَكون . ومَعاذَ الآلهةِ أَن أَختَارَ شريكَةً لحيــاتي فتاةً لا تَشاركني الإعجَابَ والمحبة . ومَا جِئْتُكَ طَالباً يَدَها إلاّ لأَنِّي تَحَدَّثتُ اليهَا ، فَفَاضَ جَمــالُ نَفْسِهَا وَذَكائِها على حسنها وفتنتِهَا . فَاسْأَلْها - إن شئتَ - أَن تقول كَلِمَتَهَا في الْأَمْر .

فَرَدَّ الكاهن قَائِلاً : « حُبَّــا وكرامة ! » وَدَخلَ على « جوليا دمنةَ » في خدرِها ، فَوَجَــدَ

بين يَدَيها وَشِيعةً[١٩] تُطَرِّزُها برسوم ، وَقَد كَتَبَتْ عَلَيهَا أَوَّل حَرْفٍ من اسم سبتيموس ، وَلا تَزَالُ آخِذَةً في رَسم حرفٍ آخر لم يَكتمل بعد . فَأَدركَ أَنَّ إلاهةَ الْحُبِّ قد سكَبَتْ من ندى سِحرِها على رُوحَيهما في وَقتٍ معاً .

فقالَ ، لَمّا رَفعَت بَصَرها إليه ، وَتَحركت لاستقباله :

كَأَنِّي بكِ أدركتِ لماذا دَخلتُ عَليكِ الآنَ في خدركِ ، وَأَنتِ مشغولةٌ في شُؤُونك .

فَرَدَّت جُوليا قائلة :

أَدْرَكتُ ، وَلَا أَتجَاهَلُ أَنَّ القَائِدَ سبتيموس

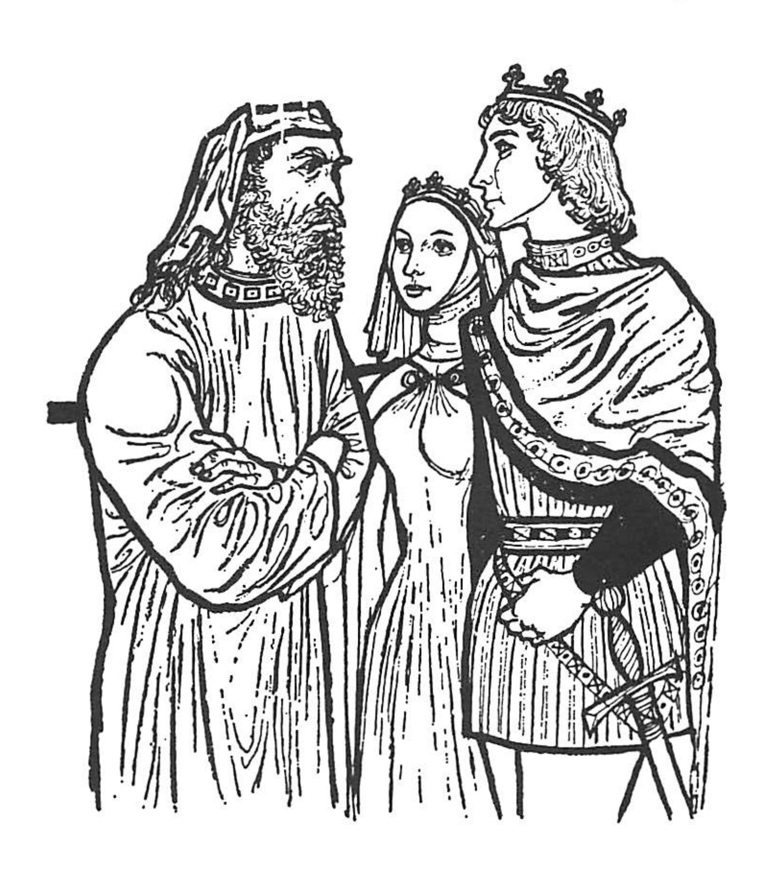
عِندنا ، هٰذَا الذِي أَرسَلَتْهُ عشتارُ إِلَيَّ عَبْرَ المَغيب ، مِن يوم صرتُ من بناتِ ربيع الْحَيَاة .

فَهَتفَ الكاهِنُ الشيخ :

بوركَتْ عشتارُ وبوركَ سِحرُهـا الْعَجِيب ! هلمي بنا إلَى ردهةِ الدَّارِ فاستقبلي الرَّجـل الذي أَحببتِ . وَلْنَستَعِدَّ لإجراءِ المَراسم .

فنهضت جوليـا دمنة ، وخطرت إلَى جانبِ والدِها في ثوبها الأُرجوانيِّ ، تَجُرُّ ذيولَهُ باسِمـةً ، وَالوشيعةُ لا تزالُ في يَدِها . فَمـا كادَ سبتيموس يَنْهضُ لاستقبالهـا ، حتى طَوَّقَتْ بالنسيج عنقه . فَضَمَّهَا إليه وَهمس : « بركَتَكَ أَيُّهَا الكاهِنُ الجليل ! »

ورفع باسيانوس يَـدَه وَاستَمطَرَ على الشَّابين



الجميلين بركاتِ عشتارَ . ثُمَّ رَاحَ يَسْتَعِدُّ لإِقَامَةِ المَراسِم .

واحتفلت حمصُ وَسائرُ الجوارِ بعرسٍ قَلَّمَا شَهِدَت مِثْلَهُ هذه الرُّبوع .

وَانتَقَلَتْ جوليا دمنة إِلَى قَصرٍ بناهُ سبتيموس في مدينَةِ بيروت . وَرَاحت تمـدُّهُ بآرائِهَا الصَّائِبَة . فَزَادَ القَائِدُ البَطلُ نشاطاً وَإصلاحاً .

وكانت تَنتَقِلُ معه في المدن ، وَالقُرى ، وَتَقِفُ عَلَى شُؤُونِ الرّعايا ، وَيَتعَرَّفانِ معاً إِلَى الحاجات وَإِلَى مَا يَجِب إِقَامَتهُ من العُمرانِ والإِصلاح .

وَأَوّلُ ما لفتَ نَظَرَ سبتيموس بعضُ التأَخُّرِ

فِي مَوارِدِ البلاد ، وشيءٌ من سوءِ النِّظامِ يَقِفُ في طَرِيقِ التَّقَدُّمِ وَالازدَهار .

فَأَحسَنَ التنظيم أوَّلاً ، ثُمَّ عَمَدَ إلَى تحسينِ مَوَارِدِ الرِّزق . فَرَأَى أَنَّ الزِّراعَةَ أَساسٌ وَأَنَّ أَكْثَرَ مِياهِ الْأَنْهارِ خصوصاً في لبنان ، تَجرِي بِسُرعَةٍ نَحو البحر ، لا تَستفيدُ منها الْأراضي العَطْشى ، وَلا الْأَهلُ العِطاشُ كذلك . فبنى الجسور في مَعَابرِ الْأَوْدِيةِ وَجَرَّ المياه على قَناطِرَ جعل فَوقَها مجاري مُجَصَّصة ، لا يَزالُ بعضُ آثارِها إلى يَومنا هذا .

وَسَرَّحَتْ جوليا دمنةُ نَظَرها من على شُرفةِ قَصْرِها فِي بيروتَ، فَراقت لها قرية خضراءُ عَلَى رَابِيَةٍ مُجَاوِرَة.

فقالت في نفسِهَا : « لِمَ لا نُقيمُ على هــذه الرابيةِ الخضراء المُشرِفَةِ على السّاحِلِ الجمِيل مَصيفاً لنا ؟ »



وَما كادَتْ تُبْدِي رَغبتهــا لسبتيموس حتّى استدعى المهندسين وسائر المشتغلين بفنِّ البناء ، وَالحفر وَالزُخرف . وما طال زمن ، حتى نهضَ قصرُ دير القلعة المعروفُ اليومَ بِهذَا الاسم في مصيف بيت مري . وَانباح (٢١) أَمَامَهُ المسرح الرحبُ . وَقَامَتْ في جِوارِ

هذَا المَصيفِ الجميل ، حَرَكَةٌ زِرَاعِيَّةٌ وَصِنَاعِيَّـةٌ وَعُمرَانِيَّة ، فَإذَا الجَبَلُ كُلُّهُ يَنْتَعِشُ ، وتسري فيه عَدوى العُمْرَان وَالتَّحْسِين .

وَامتَطَى سبتيموسُ وزوجتُهُ ذَاتَ يومٍ جوَادَيهما وَزَارَا مَدِينَةَ صَيدا . فاستقبلهما حَاكِمُهَا الفِينيقيُّ أَحسَنَ استقبَال . وَتَجَوَّلَا في المَدِينَةِ وَضَواحِيهَا . فَرَاقَت لَهما المَنَاظِر وَأَحبَّا الشَّعْبَ وَأَصغيا إِلَى حاجاته .

فبعدما أَمَرَ سبتيموس بِإصْلاحِ أَحوالِ الزِراعَةِ ، وَكافَأَ الصُنَّاعَ البَارِعينَ في النقشِ على الزجاج ، وَسَائِرِ الآنِيَة ، رَأَى بَعضَ الضَّواحي تَحتَاجُ إِلَى الرَّي فَأَمر بانشاء القَنواتِ (٢٢) المُعَلَّقَةِ ، وَجَرِّ المياه إِلَى كُلِّ بقعة

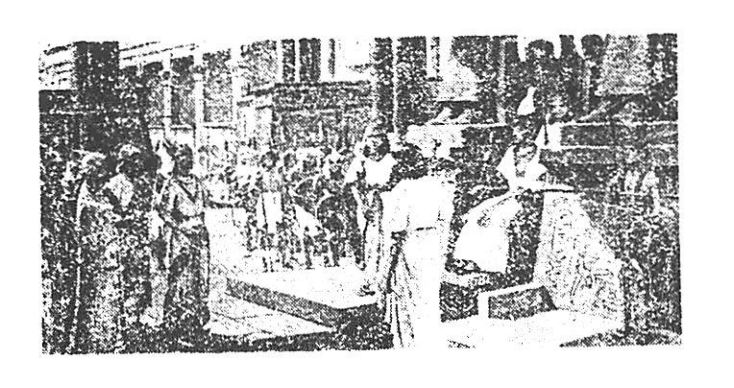
عطشى . وَشَيّدَ مبانِيَ لتكونَ مَعارِضَ للصِّنَاعَةِ والفنون . وَبَعْدَ مُدَّة زارَ سبتيموس مَدِينَةَ صُور ، وَأَحبَّ أن يُعِيدَ مَجْدَهَا لأنها أنبتت من أَسَسُوا



الْحَضَارة فِي شِمالي افريقيَا . فبنى الَمعَابِدَ وَالهياكل ، وسوراً عَظيمة حولَ قِسمِهَا البري ، ومَدخلاً فَخماً تَحتَ قَوسٍ مَعْقُودَةٍ بِالأَعْمِدَةِ وَالْحِجَارَة الضَّخمةِ عُلُوُّهَا أربعٌ وعشرون ذراعاً . وكافَأَ الْمُشتغلين بصناعةِ النسيج والصباغ الأُرجوانِيِّ حتى عادت صُورُ إِلَى سَابقِ غِنَاهَا .

وكانَت دمنَةُ تَحثُّهُ علَى تَشجيع مَوارِدِ رزق الشَّعْب وعلى تَجميلِ حَياتهم . فازدهرت الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ فِي الْبِلَادِ الشرقِيَّة ، وسادَ سلامٌ فِي الرُّبوع وَالدُّروب .

كان سبتيموس قَد جَمَعَ فِي قَصْرِهِ ببيروتَ أَهْلَ الْفَلْسَفَةِ وَالشريعَةِ وَأَهْلَ الْهَنْدَسَةِ وَالفَنِّ . ليَبْحَث



معهم تَوسيعَ مَدْرَسَةِ الْحُقُوقِ فِي بَيْرُوت وَإِنْشاء فروعٍ عِلْمِيَّةٍ فَنِّيَّة مِن آداب ، وَفلسفة . وكانَ بابذيانُ واولمبيانُ ، العَالِمان المَعروفان فِي لبنان وسوريا على رَأسِ المَدعوِّين ، وكانت زوجةُ القَائِد تحتفي[٢٣] بِهم جَمِيعاً وَتَتَحَدَّثُ اليهِم بعلمهم وَفنونهم ، حَتَّى سُحِرَ اولمبيانُ الصُّوريُّ بِمواهِبها العَقلية ، وقال : مَا دَامَ سبتيموس ساويروس قَد حَصَلَ على هَـذَا

الكَنزِ من الجمال وَالذكاء فَلا عَجَبَ أن يَحصَلَ على عَرش رومة من قَريبٍ أو بعيد .

وَكَأنَّ ٱلْعَالِمَ القَانونيَّ تَنَبَّأَ . فما مَضى أُسبُوعٌ حَتَّى أُذيعَ فِي أَرجاء الامبراطورية الرُّومانيَّة وفاة الامبراطور ، وَتَنَادَى ٱلْجَيْشُ وَأَهلُ الوَجاهَــةِ وَالإخلاصِ باسمِ سبتيموس ساويروس، الذي أَعادَ إلَى الشرق هَيبةَ رومة ووجهها المشرقَ .

فَدُعِيَ إلَى رومة ، وَتَسَلَّمَ التَّاجَ وَالصَّولجان . وعمل بنصيحَةِ زَوجتِهِ فَجَعَلَ ولمبيان العَالِمَ اللُّبْنَانيَّ مُشْتَرِعَه وَمُشيرَه في إجراءِ الأَحكَام .

أَوّلَ مَا بَدأ عَمَلَهُ ، كانَ النظرَ في ظُلامَاتِ النَاسِ.

فَأَجْرَى العَدْلَ بادئاً فِي رومة نَفْسِهَا حتَّى آخِرِ أطراف الامبراطوريةِ الواسِعَة . فَلَمْ يَبْقَ فِي السُّجُونِ مَظْلُومٌ وَاحِد . وَحوَّل السُّجُونَ إلَى مَشَاغِلَ وَاصْلَاحِيَّات . فَإذَا أَكْمَل السَّجِينُ مُدَّته خَرَجَ أَلَى العَالَمِ إِنْسَاناً صالحاً .

وكَانَتْ بابلُ فِي عَهْدِ سَلَفِهِ قَدْ انْفَصَلَتْ عَنْ تَابِعِيَّة الامبراطورِيَّةِ الرُّومانِيَّةِ ، وَآسِيا الصُّغْرَى قَدْ اضْطَرَبتْ وَقَامَتْ فيها الفِتن .

فَقَادَ بِنفسِهِ أَوَّلاً حَمْلَةً إلَى الشرق . فَانْتَصَرَ على الْأَعـداء فِي أسوس عِنْدَ حدودِ الاسكندرونة وَاسْتَرَدَّ بابـل . وَامْتَلَكَ كِيلِيكيا ، وكناسيفون العراقِيَّة .

وكانَت دِمنةُ رَفِيقَة له في هٰذِهِ الْحُرُوب، تَمُدُّه بآرَائِهَا وَتَنْصَح بِاللِّين عِند المَقْدرَة .

ولكي يَضبطَ الْأمورَ بدِقّة ، وَيَبْقى السَّلَامُ سَائِداً على الرُّبوع الَّتي كانَت مُضطَربة عَيَّن أَبْرَعَ قُوَّادِهِ وَأَمْهَرَهُم حُكَّاماً عَلَيْهَا . فَكَانُوا عِنْدَ ثِقته .

فَرَفْرَفت فِي الشّرق الأوْسَطِ وَفي آسيا الصُّغْرَى مِن جَدِيد رَايَةُ السلام ، وَانصَرَفَ النَّاسُ إِلَى تَحْسِين شُؤونهم .

وكانَت غاليا ، قَدْ اشْتَعَلَت فِيهَا الفِتَنُ ، وَأَظْهَرَتِ العِصيَانَ على الامبراطوريةِ الرُّومانِيَّة . فَمضى إِليهـــا بنفسه عَلَى رَأسِ حَملة من قُوَّةٍ وَفِكْر، فِيهَا مُستشارُوهُ

الفُقَهاءِ وزَوجَتهُ الذَّكِيَّة . فما لبثَت غاليا أن رَفعَت رَايَةَ السَّلام وأعلَنت وَلاءها[٢٤] .

فِي هذِهِ الأثناء ، كانَت جوليا دمنة فِي الشهرِ التَّاسِع من حَملِهَا . وكان فِي خطّة سبتيموس أن يزحَفَ على انكلترا دونَ إبطَاء . ولكنَّه انتظَرَ مَولودَه البكر ، وسَمَّاهُ كَركَلَّا .

وبَقِيَت جُوليا فِي غاليَا ، مع أطبائها ووَصِيفاتِها تُنَاغِي وَلِيدَها الأوَّل . وزَحفَ سبتيموس إلَى انكلترا .

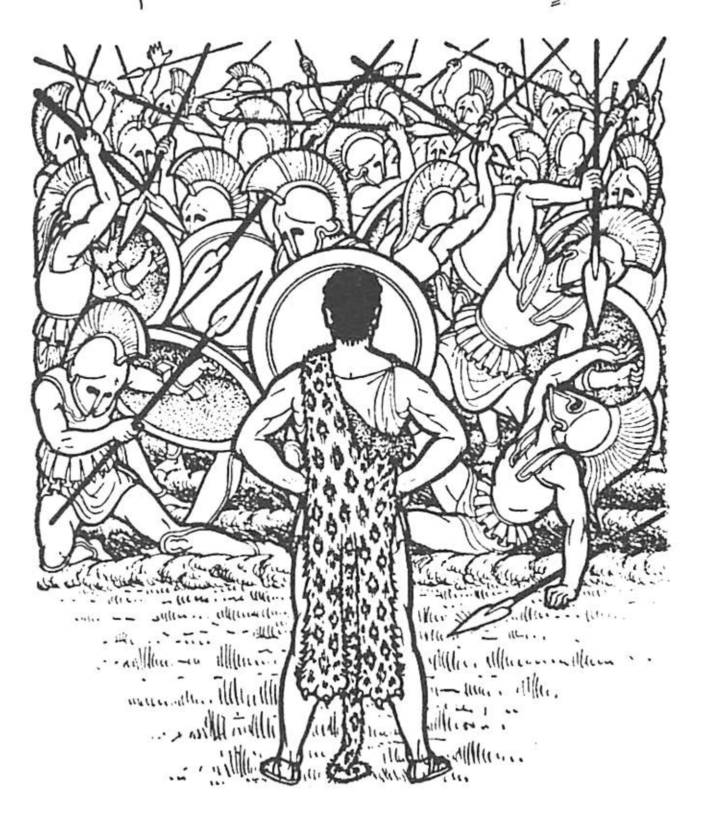
فَلَقِيَ فِيهَا مُقاومةً ضارِيَة[٢٥] . ولَكِنَّه انتَصرَ عَلى كَلدُوني الشَّمَال انتِصَاراً عَظِيماً . وشَيَّدَ هُنَاكَ

سُوراً سَدَّ بِهَا خليج قُوراس عَلَى مَصَبِّ نَهْرِ الايكليد . وَلَا تَزَالُ آثارُ هذِهِ السور قَائِمَةً ، وَتُدْعَى إِلَى اليَوم بسور ساويروس .

وَعُظِّمَت أَفْعَـــالُ ساويروس عِنْدَ الشَّعْبِ الرُّومانِي . فَرَاحَ يَسْتَعِدُّ لاستقبالِهِ . وَأَبى هـذا الشعبُ الاّ أن يُقيمَ أَثَراً كَبِيراً للانْتِصَارَاتِ الَّتي حَقَّقَهَا بِقِيَادَةِ امبراطورِهِ العَادلِ الْحَازم .

وَعَادَ فِي مَوْكَبِهِ الظَّافِرِ بين قَادَتِه وَمستشاريه ، وَعَلَى يمينـــه زوجتُهُ في عربة خَاصَّة مع ولدِهَا بينَ وَصِيفَتَين من صديقَاتِها . وَقَدْ خَرَجَت رومةُ جَمِيعُهَا إِلَى لقائه ، هَاتِفَةً بِحَياتِهِ مُهَلِّلَة لانتِصَارَاته .

فَلمَّا أَشْرَفَ عَــلَى مَدْخَلِ ٱلْمَدِينَةِ لاحت لهُ قَوسُ نَصْرٍ شَاهِقَةٌ ، رَفْرَفَتْ فَوقَهَا الْأَعْلَامُ ، وَقَامتْ



حولها الزينات ، وقد حفر على القوس اسمه ،
وكتبت على لافتات الزينة عبارات الترحيب والتعظيم .

تأثر الامبراطور سبتيموس وفاء الشعب له .
فزاد في السهر على تحسين الأوضاع الادارية ،
والاجتماعية . وسعى باشارة زوجته المخلصة إلى
تحسين أحوال الفلاحين في كل بلد رفرفت في
سمائه الراية الرومانية .

ومع أن دمنة كانت ابنة رئيس كهنة هيكل حمص
الوثني ، وكانت تتعبد للقارت والزهرة فلم تكن
تتحرج في أمور الدين . وسبتيموس كذلك
كان متساهلا ، فلم يلاحق أتباع المسيحية ولم يقس
عليهم . كما كان يفعل سابقوه من الأباطرة الذين

أَمَروا بالصَّلْبِ ، وَالْجَلْدِ ، وَالنَّار ، وَأَلقَوا مَن لا يُؤمِن إِيمانَهم طَعَاماً للوُحوشِ الضَّارِية .

كانَ أَوَّلَ الأباطرةِ الذين قَالوا بِحُرِيَّةِ ألفِكْر والعقيدة .

وَعَملاً بِرَأْي مُستشارَيه: اولمبيان وبابينيان نَظَّمَ الشَّرائِعَ الرُّومانِيَّة وَجعَلَها فِي أَعْلَى مُسْتَوَى . فَلَم يَحْكُمْ قَاضٍ من القُضاةِ في عَهدِه عَلَى مُتَّهم إلاَّ بعدَ الأَدِلَّةِ الثَّابتة. ولَمْ يَشكُ انسانٌ ظَلامَةً إلاَّ نَظرَ فيها القَضَاءُ بعينِ العَدل . حَتَّى نَدَرتِ[٢٧] الشَّكاوَى ، وَسَادَ نِظَامٌ وَسَلام .

وَجَاءَ سبتيموس كتابٌ من أَحَدِ أُخوتهِ ...

أَباه مَريض . فَنَظَّمَ رَحلَــةً لزيارَةِ المُمتلكاتِ الرُّومانِيَّةِ في أَفْريقِيا .

وَلمَّا وَصَلَ فِي حَاشِيَتِهِ المَلَكِيَّةِ إِلَى مَدِينَتِــهِ « لاتيس ماجنه » تَرَجَّل من مركبته وسار على قَدَميه ، رَمِثلَهُ فَعَلَت زوجتُه دمنة ، فَمشت إِلَى جَانِبه ممسكةً بِالأَمِيرِ الصَّغير وَدَخَلَ البَيتَ الوالديَّ وَانحنى على يَدِ أَبيه الشيخ مُقَبِّلاً إِيَّاها باحترام ، ساكِباً عَلَيْهَا دمعة المحبةِ والوفاء . فَبارَكَهُ الوالدُ الشيخُ وَبَارَكَ زوجتَهُ ووَلده وَفاضت روحُهُ على الأَثَر . فَأَمَرَ سبتيموس بدفنه في احتِفَالٍ عظيم . وَتَذَكَّرَ في تِلْكَ الرُّبوع حَدَاثَته . وَعَادَ خيالُ هنيبعلَ يَحيا في خاطره من جديد .



وكان له قُدْوَةً في كَثيرٍ من خُططِه الحَرْبيَّة وَانْتِصارَاتِهِ العَظيمة .

وَتَرَاءَى له هَنيبعلُ في ليلةٍ مِنَ اللّيَالي قَادِماً من بعيد وَعَلَيه بَزَّةُ القَائِد ، عَائِداً من سَفَرٍ . وَحدَّق اليهِ بعنين وَاسعتين ثُمَّ ابتَسَمَ ابتسامةً كَئِيبَةً وَأَدَار ظَهْرَهُ ومضى مَاشِياً في فلاة لا نِهايةَ لها .

كان يمشي ويمشي، وَالمسافَات تَنطَوي ولا تَخْتَفِي، كَأَنَّهُ الشَّمْسُ لا تَسْتَطيعُ البَوادِي[٢٨] مهما امتَدَّتْ أَن تحجُبَ قُرصَهَا النُّورَانيَّ .

عَجِبَ سبتيموس من هذَا الإِنسانِ المَارِدِ كَيْفَ لَا تَطوي شَخصَهُ المَسافَـاتُ البعيدَة ؟ كَيف تَبْقَى قَامَتُهُ المَدِيدَةُ هي هي، عن مئاتِ الأَمْيَال، وَالقَاعدة أَنَّ الفَارِس على جوادِهِ في الصَّحْراء ، يُصْبِحُ نقطَة

صَغيرة في النَّظَر إذَا ابتَعَد مسافَةَ عشرةِ أَمْيَالٍ على الأَكْثَر ؟

ثُمَّ رَآهُ قَدْ انْتَصَب بِقَامَتِهِ الفَرعاءِ[٢٩] في آخرِ الشَّفَقِ الوَرْدِيِّ ، وَقَد امْتَشَقَ[٣٠] حُساماً أَشَدَّ لَمعاناً مِن أَنوارِ الشفق . وَغَابَتِ الأَنوارُ الوَرْدِيَّةُ ، وَاشْتَدَّ الظَّلَام ، وَبَقِيَ حُسَامُ هنيبعلَ نَيِّراً[٣١] .

وَاسْتَيْقَظَ سبتيموس من نومِهِ مُبَكِّراً وَرَاحَ يَتَمَشَّى ، مَأْخوذاً بِالحُلْمِ الغريب الذي تَرَاءَى له .

وكان يَهْمِسُ لنفسه مُتَسائِلاً : « ما تُرَى يَكُونُ تَفْسِيرُه ؟ أَخيراً أَم شَرًّا ؟ »

كان هَمْسُهُ لنفسه عالياً ، مسموعاً ، وهو لاهٍ عَمَّا حَوْلَه كَأَنَّهُ لا يَزَال في حُلْمِهِ الغريب .

وَإذَا به يَسْمَعُ صوتَ دمنَةَ اللَّطيف يَقُــول :
« مالكَ يا حَبيبي مَهْمُــوماً ؟ وَأيُّ لُغْزٍ يَشغَلُكَ فَتَتَساءَلَ عن تَفْسيره؟ » .

فَانتفضَ [٣٣] الامبراطورُ الرُّومانيُّ كَمَن اسْتَيْقَظَ بغتةً من رُؤْيَا ، وَنَظَرَ الى زوجتِهِ وَابْتَسَمَ قَائِلاً :

- أنتِ دَائِماً فِي أَثَرِي يَا حَبيبتي ! كَأَنَّكِ أَقْرَبُ إلَيَّ مِن نَفْسِي؟ كُنْتُ أَهْمِسُ لِذَاتِي فَإذَا أَنتِ تَسْمَعِين !

- رَأَيْتُكَ تَسْتَيْقِظُ وَعلى مَلامحك ظِلَالُ تَفْكِيرٍ بعيد. ثُمَّ خَرَجت تَتَمَشَّى مُنْفَرِداً وَتَتَحَدَّثُ إلَى نفسِكَ فَرَابني [٣٤] أَمْرُكَ . فَهَلْ من مُعضلَةٍ تستدعي مَشُورَةَ مُسْتَشارِيك ؟

ـ لا ، وَالحمدُ للآلهة ! ليس في الأَمرِ إلّا حُلم .
وَلكِنّهُ رُؤْيَا غَرِيبة !

ـ عسى أَلّا تكونَ هائِلةً مُخِيفة ؟

ـ لا يا دمنة ، حُلمي أسطورةٌ[٣٥] مِنَ الأَساطير .
نَواتُه[٣٦] نَبَتَتْ في قَلبي وَخَيَالي وَأَنا بعدُ غلامٌ في مَسقطِ رَأسي ، أَتَعَلَّمُ القِرَاءَة وَالكِتَابة مع أَترابِي من أبناء مدينةِ لاتيس . وكانَ مُعَلِّمُنا شَيخاً وَقوراً يُحِبُّ البُطولَةَ وَيُعجَبُ بِجدودهِ من أَبناء صورَ الذين بَنوا قرطاجةَ ونشروا الحَضارة وَالفكر في كلّ أَرضٍ حطُّوا فِيها رِحالَهم . كان يَفتَخِرُ بِأَنَّهم لم يكونوا فاتحين مُدَمِّرين . بل كانوا بُناةً ، وَمُؤَسِّسين ، وَمُمدِّنين .
تلك كانت كلماتُهُ بالحرف ، لا زيادَةَ ولا نقصان .



كنتُ أَشْعُرُ بِأَنَّهَا تَنْزِلُ على قلبي كالندَى عـلى زهورِ الربيع .

المُعَلِّـم يا دمنة انسانٌ عَجيبٌ ، إِذَا أَخْلَصَ للعطاء . المُعَلِّمُ مُكوِّنٌ للنفسِ يا حبيبتي ! خالقٌ . كُنتُ أُومِنُ به أَكْثَرَ من إِيماني بِأَيَّةِ قُوَّةٍ غيرِ منظورة.

أنتِ تدرين ، أَنَّ الانسانَ في الثَّانِيَـةَ عَشْرَةَ



أو الثّالثَةَ عشرةَ له قَابلِيةُ الايمان بالقوى غير المنظورة.
في مُعَلّمي يا دمنة كنتُ أرى هذه القوى مُجَسَّمَةً فِي صَوتهِ المضطرب ، وفِي كَلماتهِ الواضحةِ المقاطع .

كانَ مُعَلّمنا حريصاً على أن يَروي لنـــا سيرةَ هنيبعلَ العظيم . من يوم مولده حَتَّى آخر خفقةٍ من قَلبهِ الكَبير . كَيْفَ نَشأَ وَتَعلمَ ، وَتَرَوَّضَ على المشقَّةِ ، وكيف اختبرَ النفوسَ وَدَرَسَ التَّأثيرَ فيهَا . كيفَ آمنَ بذاتِهِ ، وَأَفَاضَ المحَبَّــةَ على جنوده . كَيْفَ كانت عبقريتُهُ تُلبيهِ في الشدَّة . فينتزِعُ[٣٧] النصرَ ولو كانَ في يَدِ عَدُوِّهِ كَأَنَّهُ إلهُ الحرب .

هنيبعلُ يا دمنةُ ملأَ نفسي ، حَتَّى في نهايَتِــهِ ،

نَهايةِ النسرِ الذي يُحطِّم جَناحِيه بصخورِ الْجَبَــل ، أوْ فِي جُنونِ العَاصفة .

هنيبعلُ عَــدُوٌّ رومة ، بَقيَ عَظِيماً فِي نفي وَأَنا الامبراطورُ الرُّوماني .

فَجَعَلْتُهُ قَدْوةً لي في كثيرٍ من حروبِي، فَلَمْ أغْلَبْ حَتَّى اليَوم . وفي هذه الليلَةِ تَرَاءَى لي في المنام ، وَلَم يُفَارِقْني شخصُهُ العَظيمُ حَتَّى الصباح .

فَقَالت دمنةُ بنغمةٍ رقيقة :

ـ كيفَ تَرَاءَى لك يا حبيبي ؟

فَقَصَّ عليهَا سبتيموس حكايةَ الْحُلْم الغَرِيب الصامت . فَسَأَلتْهُ قَائلة :

ـ أَما أَخذتَ يوماً مِنَ الأَيَّام على نفسِك عَهداً ، أَو أَمراً يُشبهُ الوعدَ أو النَّذْرَ بِالنظر لِإعجَابكَ بِهَذا القائِدِ العَظيم ؟

ـ لم يَحْدُثْ أَني أَخَذْتُ على نَفسي عهداً ، أَوْ شبهَ وَعدٍ ، أَو نذرت نذراً له صلةٌ بهنيبعل ، غير أَني أَتذَكَّر خواطرَ كانت تُراوِدني وَأَنا بعدُ تلميـذٌ لذلك الشّيخ الجليل ، بِأَن أُقيمَ تِمثالاً أَو تماثيـلَ لهنيبعل ، متى صارَت لي القـدرة على ذلك . وَأَنا اليَوم كما ترين امبراطورُ رومة ، وَهنيبعلُ بنى مَجْدَهُ على غَلبتِها في معاركَ مَشْهُورَة ، فَهَل يَلِيقُ بي أَن أَرْفَعَ تَماثيلَه تعظيماً لانتصارَاته ؟

ففكرت دمنةُ فترةً ، ثُم أَجابت :

أنت أَدرَى أَهلِ هـذَا الزمانِ يا حبيبي أَنَّ العبقرِيَّةَ تتَجَاوزُ حدودَ الْبِلَادِ وَأَجنَاسَ العِبَاد[٣٨] ، وَلا تَختصُّ بِأُمَّةٍ دونَ أُخرى أَو بقَوْمٍ دُونَ قوم . العَبْقَرِيَّةُ كالشَّمْسِ تُعْطِي الجميع بالسَّواء . وَقَد صارَ اليَومَ هَنيبعلُ اسماً يُمَثِّلُ معنى العبقريةِ في قيادةِ الجيوش وَتَرْوِيضِها[٣٩] . وَلَم يَبْقَ انما وحدَنا نحن الذين تَحَدَّرْنَا مِن أَصْلٍ شَرقيٍّ . أَمَا اتَّخَذَهُ شِيبيونُ الأَفرِيقيُّ مَثَلاً فَتَحَدَّاهُ وَانْتَصَرَ على قَرطاجة ؟ أَترْفَعُ رُومةُ التَماثِيلَ لِشيبيون ، وَلَا تَرْفَعُ التَّماثِيلَ لهنيبعل ، وَيَكادُ بِا يَتَمَثَّلُ إلهُ الْحَرب ؟

فارتاحت نفسُ ساويروسَ لجوابِ زوجتـه السَّاحِرَة وهتف :

بوركَ فيكِ يا دِمنة ! فقد كنتِ ، وَمَا زلتِ فَرَحاً لنفسي وَمَبْعَثاً لِهمّتي ، وَخَيْرَ مُشيرٍ لي حين تَتَشَعَّبُ مَفاوِزُ[٤٢] الأَفكارِ في المُتاهاتِ البَعِيدَة .

صَدَقْتِ ! صارَ هنيبعلُ معنى العَبقَرِيَّة الحَرْبِيَّة وَالدَّهاءِ في السياسَةِ وَالبلاغَةِ في المنطق فتجَسَّمَت العَبْقَرِيَّةُ فيه بكُلِّ معَانيها . لذلك ، سأرفعنَّ له التماثِيل في مُدُنِ أفريقيا ، وفي الشَّرْقِ ، وفي رومَةَ نفسِهَا لكي تتعَلَّمَ البَشَرِيَّةُ جَمْعَاءَ بِأَنَّ العَبْقَرِيَّةَ خالدةٌ لا تموت ؛ وهي أَعْظَمُ من أن تَنْحَصِرَ في حدودِ المكانِ وَالزَّمان . ثُمَّ دَعَا أَهْلَ الفنِّ من المثَّالين وَوَضَعَ جائِزةَ لافضَل من يصنع تِمثالاً لهنيبعل . فَلَمَا أَنجزَ التِّمثَالُ الأَفْضَلُ ، رفعَهُ علَى نُصُبٍ عالٍ في ساحة

مَدِينَةِ لاميس ، وَأَمَر أَن تُنْصَبَ تماثيلُ عَلَى غرَارِهِ فِي سَائِرِ مُدُنِ الشَّرقِ وَالْغَرْبِ من الامبراطوريـةِ الرُّومانِيّة .

فَقَال مَن لم يَستطِيعُوا أَن يُدركُوا معنى العَبْقَرِيَّة المخلَّدة :

« لقد انتَقَمَ ساويروس لمواطِنِه هَنيبعل ، فَأَقَامَ له التماثِيلَ في روَمَة نَفْسِهَا » .

وقَال آخرون :

عاد هنيبعلُ من تَحْتِ الثَّرى لِيَحْتَلَّ أَسْمى مكان فِي رُومَة .

وكان مثلُ هذِهِ الْأَقوالِ يَنْتَهِي إِلَى سَاويروس

فَيَبْتَسِمُ وَيَمضي فِي التنظيم ، وَإِجراء العَـــدل وَالإِصلاح .

●

كانت جوليا دمنة تَحِنَّ إِلَى زِيارَةِ الشَّرْقِ لِتَرى مَا حَلَّ بِأَخواتِهَا بَعْدَ مَوْتِ وَالدِهَا الكاهِنِ الشيخ . وَلَم يَكُنْ سبتيموس أَقلَّ مِنْهَا شوقاً إِلَى مسْقَط رَأْسِ جدودهِ الْأَوَّلين ، وَإِلَى رُؤْيَةِ المَشاريع وَالْأَعمالِ التي حَقَّقَهَا لَمَّا كانَ قَائِداً للجيوش الرُّومانِيَّة في الشَّرق، وَللوقوف على أَحوَال الرَّعايا وَالشُّعوب وَإِصْلَاحِ ما يَجِبُ إِصْلَاحُهُ وَتَعْمِيرِ ما كان قد رَسَمَ في فِكرِهِ لَمَّا كانَ يَتَنَقَّلُ في رُبوعِ المَشرق .

فَأَقامَ وَصِيًّا عَلَى العَرْشِ في رومة ، وَانتقلَ مع

حـــاشِيَتِه ومُسْتَشاريه إلَى الشَّرْقِ في مَوكِب عَظيم .
فَزَارَ الاسكندرونَة ، وَانطاكية ، وحلب ، وَأَقامَ
بعضَ الوقتِ في حمص . فَأَصْغى في كلِّ مدينَةٍ منهَــا
إلَى الشَّكاوى فَأَصْلَحَ وَزَادَ في تَوطِيد[٤٥] النِّظــام
وَالعَدالة .

وكانت سَنةُ قُدومه خَــيراً على الفَلَّاحين إذ
تَدَفَّقَتِ الأَمطَارُ بِسَخَاء ، وَامتَلَأَتِ الأَهْرَاء[٤٦]
بِمحصُولِ الأَرْض .

وَتَنَبَّهَ الإمبراطورُ المصلحُ إلَى بعْضِ المَشَارِيعِ
الَّتي لم تُنْجَزْ ، مِنهَا مَشارِيعُ الرَّي من الفُرات ، وَالعاصي
وَاللِّيطانِي وَاليَرموك وَسواها من الأَنْهَار الَّتي يَجِبُ أَنْ
تُفيدَ منهَا الزراعَة . فَدَعَا إلَى إنْجَاز[٤٧] ما يَحْتَاجُ إلَى

إنْجَاز ، وَإلى ٱلقِيَام بِأعْمَالِ جدِيدَة ليرْتَفع مُستَوَى المَعِيشةِ وَيستَمِرّ كَذَلِك مع تَكاثُر عَدَد السُّكان .

وهذه نظرةٌ سابقةٌ لعَصْرِهَا ، مئاتٍ بل أكْثَرَ مِنَ المئاتِ من السنين . تَنَبَّهَ لَها هـذا الامبراطورُ الوَاعِي ، لأَنَّهُ لا يَفكّرُ بعقلِهِ فَحَسَب ، بل يُفكّرُ بعقولٍ كَبيرةٍ عَالمةٍ تُحِيقُ بهِ . وَفَضلُهُ العظيمُ أَنَّهُ عَرَفَ كَيفَ يَختَارُ مُستَشاريه وَأعوانَه .

وَبَيْنَمَا كانَ ساويروس مَشغُولاً بالاصلاح وَالتعمير وَالانتِقَال بين المُدُنِ وَالقُرى من سوريا و لُبْنَان وَسائِرِ الأَقْطَارِ الشامية وَالصَّحَارَي البَعِيدَة ، وَاقِفــاً عَلى شؤون النَّاس ، مُتَحَدّثاً إلَى الكَبير وَالصَّغير كانت



زوجتُه تَقضي في حمص أَيّاماً طيبة مع أَخواتها ، وهي بدَوْرِها تَسْعَى في الاصلاح والتَّعمير .

وكان ساويروس قد توقَّفَ في دمشقَ واخْتارَ مَكاناً في قلبهَا لبناء هَيْكَلٍ جديد . ولمَّا عاد إلى حمص ليَصْحَبَ زَوْجَتَهُ مَعَهُ إلى بعلبَكَ وَجدَ تِمثالَه مَنصوباً في جَنَّةٍ أَنْشَأَتها دمنةُ في قَلْب المَدِينَة . وأُقيمَ له احْتِفَالٌ في تلك الْجَنَّة كان سرورُهُ به عَظيماً . وكان ساويروس قد عُنِيَ عناية عَظيمَة بوادي البقاع ففاضَت بيادره بالغلال ، وكرومُه بالخمور الطيبة ونعمَ أَهْلُهُ بِأَمنٍ وَخيرٍ وهناء .

فَلَمَّا علموا بقدومه تَنَادَوا لاستقباله من كُلِّ قَرْيَةٍ وَمَزْرَعَة ، وَرَفَعُوا أَقواسَ الزِّينَةِ في بعلبكَّ ، وَقامَتِ

الاهازيج ، وارتفعَتْ أَصْواتُ الهُتاف لمّا أَقبَلَ علَى جوادٍ أَبيضَ وإلَى جانبه زوجَتُهُ عَلى جوادٍ أَشقرَ وحولَه مستشارُوه وسائِرُ الحاشِية .

وكانَت طريقُ المدينةِ قد فُرِشَتْ بالسَّجادِ حتَّى هيكلِ الشمس . وَهُنَاكَ أُقِيمَت الوَلائِمُ وذُبِحَتِ الذبائح ، وَأُريقتِ (٤٨) الخُمورُ .

فابتهجت روحُ دُمْنةَ وقالَت لساويروس :

- لِمَ لا نقيمُ معْبداً لباخُوس إلهِ الْخَمْرِ والْخِصبِ وهذِهِ الدُّنيَا دُنيا كُرُوم ، تفيضُ بالعناقيد ، وكأَنَّها حبوبُ الذَّهب ، أَو حبوبُ النُّور ؟

فتضاحكَ الامبراطور من كلام زوجتِهِ الشِّعريِّ

قائلًا : سيَكُونُ للآلهةِ في هذا المَكانِ أَعْظَمُ مِمَّا أَلهمَكِ خيالُكِ الشعري . »

فمالت نحْوهُ مُغْتَبِطَة وسأَلت :

ـ ما سيكونُ يا حبيبي !

ـ حَتّى تَتِمَّ الرسوم تُدركين ما سيكون .

وفي الغَد ، جاءَ المهندسون يحملونَ إِلَى الامبراطور صورةً لما سيكُونُ هيكلُ المُشتري ، وَهَيْكَلُ باخوس إِلهِ الكَرْمَة .

وما لبثت أَن قامَت أَعْمالُ بناء الْهَيْكَلَيْن العَظِيمين وتبعت هذه اصلاحاتٌ في المَدينَة

والضواحي . وجُرَّت مياهُ رَأسِ العين ، وقامَت حولها جَنَّاتٌ تُغَرِّدُ على غصونها الطيور .

وطالت إقامَةُ الامبراطور في الشرق ، بين بيروت وبعلبك ، ما يكاد يبتعد حتَّى يعود اليهما .

وكانت هذِهِ الاقامةُ اسعدَ أَيّام حياتهِ وحياةِ زوجتهِ ، وكانت نعمةً على العهد الرُّومانيّ في الشرق والغرب .

●

ولمَّا اطمأنَّ ساويروسُ إلَى أَنَّ مشاريعَهُ في الشرقِ قائمة ، والعدل موطّد ، والرعايا في أمنٍ

وراحة . عادَ مع أُسْرَتِه وأَعْوانِه وحاشِيتهِ إلى رومة . ثُمَّ عَنَّ [٤٩] له أَن يزورَ البلادَ التي أَخضعَها لِسُلْطانِ رومَةَ في الغرب ، ويقفَ على أحوالها عن كَثَب فتفقَّدَ شؤونَ غاليا ، وانتقَلَ إلَى بريطانيا . وراح يتنقَّلُ في أَرْجائِها داعياً إلى البِناءِ والتحسين والتنظيم .

وكان قد انتهى إلَى مدينَةِ يورك الانكليزيّةِ لمَّا شعَرَ بألمٍ شديد بأطرافِهِ ، وظهره ، عقبه صُداعٌ كاد يحطِّمُ رَأْسه .

فَأَرْسَل ، يَسْتَدْعي زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَه . ولكِنَّ المرض ازدادَ شِدَّةً . ولم يُمْهله ، رغم علاجِ الأطباء الاَّ ليلَةً واحدة ، فأَصْعَدَ روحَه مع الصَّباح ، من

ربيع مئتين وإحدى عشرة للميلاد. فكان راسَ سُلالةِ أباطرةٍ انتهت بنهاية أَحدِ حَفدتِهِ الأبعدين اسكندرِ سماويروس . وتَركَت في الحَضارة آثاراً خالدة .

★

تفسير الكلمات

١ – **الأصيل** : قبل غروب الشمس .

٢ – **الأجراء** : جمع أجير : عامل بالأجرة .

٣ – **أسراب** : جمع سِرْب : جماعة الغزلان أو الطير .

٤ – **يَنشدون** : يطلبون .

٥ – **الزُهرة** : من الكواكب السيارة . تعرف أيضاً بعشتروت، وعفروديت .

٦ – **تألُّق** : مصدر تألقَ : زاد لمعاناً .

٧ – **طيف** : الخيال الطائف في النوم .

٨ – **ممهّدة** : مُسهّلة .

٩ – **النجدة** : المعونة السريعة .

١٠ **القابلة** : المولِّدة .

١١ – **أترابه** : رفاق جيله .

١٢ – **في الحل والترحال** : في الاقامة والسفر .

١٣ – **الباسقات** : العاليات .

١٤ – **أنجب** : أولد . أنبتَ .

١٥ – **يتحلقون** : يدورون كالحلقة .

١٦ – **الحزم** : قوة الإرادة .

١٧ – **العبقري** : نسبة إلى عبقر : موطن الجِن : العبقري؛ المتفوّق .

١٨ – **كثب** : قرب .

١٩ – **وشيعة** : قطعة من نسيج .

٢٠ – **المواسِم** : العادات الجارية في الاحتفالات الدينية والسياسية ...

٢١ – **إنباحَ** : انفسحَ .

٢٢ – **قنوات** : جمع قناة. وخطأ قولهم أقنية. مجرى ماء. جمع التكسير قُنى . واسم الجمع قَنَا : قصب الرماح .

٢٣ – تحتفي : ترحّب وتكرّم .

٢٤ – الولاء : الصداقة . الإخلاص .

٢٥ – ضارية : متوحشة .

٢٦ – تتحرّج : تتشدد . تتعصب .

٢٧ – ندرَت : قلّتْ .

٢٨ البوادي : الصحارى .

٢٩ القامة الفرعاء : البالغة الطول .

٣٠ – امتشق الحسام : سحبه .

٣١ – نيّر : نوره ذاتي .

٣٢ الشفق : بقية نور الشمس بعد المغيب .

٣٣ – انتفض : تحرّك مسرعاً . ارتعش .

٣٤ – راب : أقلق .

٣٥ – اسطورة : قصة غير عاديّة .

٣٦ – نواة الثمرة : بزرتها .

٣٧ - ينتزع : يأخذ بالقوّة .

٣٨ – العِباد : الناس .

٣٩ – تحدرنا : تسلسلنا .

٤٠ – ترويض : تمرين .

٤١ – تحدّاه : فعلَ فعلَه .

٤٢ – مفاوز : طرق في الصحراء .

٤٣ – متاهات : أماكن يضيع الانسان فيها .

٤٤ – المثّالون : صانعو التماثيل .

٤٥ – توطيد : تمكين .

٤٦ – الاهراء : مستودَعات غلة الأرض .

٤٧ – إنجاز : إتمام .

٤٨ - أريقت : سُكِبَتْ

٤٩ - عنّ له : خطر له .

٥٠ – صُداع : وجع رأس .

أَسئلة عن أحداث القصة

١ — ما اسم المدينة التي وُلِدَ فيها سبتيموس ساويروس؟ وأين هي؟

٢ — ما هي العلامات التي ظهرت في الشفق ليلةَ مولد سبتيموس؟

٣ — ما قالت الفلاّحة لأمه ؟ وما فعلت الأم ؟

٤ — إلامَ كان يميل سبتيموس لمّا كان غلاماً ؟

٥ — مَن كان معلمه ؟ وما كان تأثيرُه فيه ؟

٦ — من هو الرجل الذي كان يتحدّث عنه المعلم الشيخ دائماً ؟

٧ — ما صنعَ سبتيموس لما صار في مطلع الشباب ؟

٨ — هل نجح سبتيموس لمّا دخل في الجيش الروماني ؟

٩ — ماذا تذكرتْ والدتُهُ في ذاتِ مساء ، في أثناء قطافِ الزيتون ؟

١٠ – مَن كان قائد فرقة الخيالة التي وقفت على قربٍ منهـا؟
هل عرفته ؟ مِمّ ؟

١١ – ماذا فعل سبتيموس لمّا رأى أباه ؟

١٢ – هل مكث بعضَ الوقت؟ كيف كان يقضي فرصته القصيرة؟

١٣ – ما كان مضمون الرسالة التي وردته وهو في إجازته
عند ذويه ؟

١٤ – ما هي الوظيفة التي أُسندت اليه بعد أن لمعَ نجمه في
تدريب القواد على أسلوب جديد ؟

١٥ – على مَن تعرّف سبتيموس ساويروس لمّا انتدبته السلطات
الرومانية ليكون قائداً لجيوش الشرق ؟

١٦ – ما هي الصفات التي امتازت بها جوليـا دمنة التي صارت
زوجة القائد سبتيموس ؟

١٧ – ما الأعمال العمرانيّةِ ، والاصلاحية التي قامَ بها ساويروس
لمّا كان قائداً على جيوش الشرق ؟

١٨ – ما هي الانتصارات الحربيّة التي حققها ؟

١٩ – هل كان لزوجته تأثيرٌ في نجــاح مشاريعه العمرانية والاصلاحية ؟

٢٠ – من نادى بساويروس امبراطوراً على المملكة الرومانية المترامية الاطراف ؟

٢١ – مَن اتخذَ مستشارين له ؟ وما منزلتهم العلميّة ؟

٢٢ – ما هي الأعمال الحربيّة التي حققها بعدما صار امبراطوراً؟ وكيف وطّدَ الامنَ والنظام ؟

٢٣ – ما صنعَ الشعب الروماني لمّا عاد من الغرب ظافراً ؟ هل بقيت آثار ما شيّدوا لاكرامه ؟

٢٤ – تحدّثْ عن الحلم الذي تراءَى لساويروس لمّا زار أفريقيا ؟

٢٥ – لماذا تردد أوّلاً في اقامةِ التماثيل لهنيبعل ؟

٢٦ – مَن شدّدَ عزمه بعدئذٍ على رفع تماثيل هنيبعل في كلّ مدينة شرقية وغربية؟ وماذا اعتبرَ أنه يكرّم في هنيبعل؟

٢٧ – ما قال الذين لم يقدّروا معنى تخليد العبقرية ؟

٢٨ – ما المباني التي شيّدها ساويروس بعد عودته الى الشرقَ ؟

٢٩ – هل بقيت في الشرق آثارٌ تشهدُ بأعمال هذا الامبراطور البطـــل ؟

٣٠ – أين كانت نهاية سبتيموس ساويروس ؟ وهل انتهت بنهايته سلالة الأباطرة الشرقيين ؟

١ – انشاء :

قال سبتيموس : « المعلّم مكوّن للنفس »

اقتبس من قصة سبتيموس ساويروس ما يبيّن لك تأثيرَ المعلم من أهلِ الغيرةِ والذكاء ، وكانَ التلميذ نواةً صالحةً للنموّ والعطاء ؟ متوسّماً بالجملة التي عبّر بهـــا الامبراطور سبتيموس عن معلّمه .

٢ – هل القوّةُ وحدَهـا هي التي وطّدتِ الامبراطورية الرومانيةِ في عهدِ ساويروس أم ثمة مواهب غيرها كان لها التأثيرُ الأكبر ؟

ما هي المواهب والوسائل التي ساعدت على التوطيد والامن والازدهار ؟

٣ – كان للخيال دوره الكبير في قصة سبتيموس ساويروس ، انتق بعض المواقف التي لمست فيها خيالاً ناشطاً بعيد المدى ، وبيّن قيمته في القصة ؟

٤ – هل تتجلّى الروح الوطنية في هذه القصة ؟ أشر إلى المواقف التي تبرز لك فيها هذه المعاني بقوة ؟

٥ – أكتب ملخصاً لقصة سبتيموس ساويروس في ثلاث صفحات؟

٦ – « كُلُّ عظيم وراءه امرأة »

هل يصدق هذا القول في قصة ساويروس ؟ وسّع القول وحاول أن تطبقه على بعض نوابغ العلم والحرب والقيادة الاجتماعية ؟

